بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الانبار-كلية التربية للبنات

الرؤية والتشكيل في النثر الجاهلي
الوصايا أنموذجا

د.نصرة أحميد جدوع

2013/

المدخل

الوصايا فن نثري قديم وهو كلام موجز بليغ يتخذ صيغة الامر او لفظ اسم الفعل لغرض التحذير والارشاد ,وفيه الحكم والمواعظ فهي نوع من النصح(**1**)واسامة بن منقذ يقسمها إلى قسمين وصية الاحياء للاحياء وهي ادب وامر بمعروف ونهي عن المنكر وتحذير وتبصرة بالعمل الصالح ,ثم وصايا الاموات للاحياء(**2**).,وهي اقرب الفنون الادبية إلى الناس بحكم عدم احتكار اشخاص معينين لها وعدم انحصارها في فئة او جنس ما,على نحو ما نرى في الشعر الذي تحتكره طبقة الموهوبين من الرجال ومن النساء بدرجة اقل,وعلى نحو مانرى في الخطابة التي يحتكرها المنكون المفوهون من الرجال القادة والزعماء والحكماء ,كما انها فن توجيهي تربوبي المقاصد يسهم في تشكيل ملامح شخصية الانسان الفرد ودمجه في منظومة السلوك والتفكير في مجتمع ليس له دستور مكتوب يرجع اليه بل تعارف على جملة من القيم والعادات

التي تحولت إلى اسس للعتعامل مع الاخر,وقد تكون الوصية شعرية لكن النمط الشائع منها ذي طبيعة نثرية وهي المستهدفة بالدراسة في هذا البحث.

وتتوزع الوصايا بين النساء والرجال وسجلت اسهاما ايجابيا للمراة في ادب الوصايا انطلاقا من دورها في المجتمع,وامتازت وصايا النساء بالتنوع ,وقد صنفتها احدى الدراسات بستة اصناف هي وصايا الامهات للبنات ووصايا النساء المؤمنات كالسيدة عائشة واخرى اخلاقية توجهها الام للابناء ووصايا علمية واخرى سياسية.**(3)**

ونلمح مثل هذا النوع في انواع الوصايا ايضا في وصايا الرجال للابناء والبنات ,غير إن الشائع إن يكون الموصي شيخا كبيرا يقدم خلاصة تجاربه ورؤيته في الحياة لقومه او ابنائه او احفاده,وهو ما ستكشف عنه مجمل النصوص التي ستتم دراستها.

ومع إن الوصايا تقترب في طبيعة موضوعها وبنيتها الفنية من الخطب الا انها تفترق عنها في موضوع الشمولية التي تتميز بها الخطبة والتحديد الذي تقوم عليه البنية الموضوعية للوصية,فالوصية قطعة فنية يغلب عليها الجانب الارشادي غايتها نقل الخبرات الحياتية للاخر**(4)**

وما بين الفن والموضوع فان الوصايا بوصفها نمطا ادبيا قد جمعت بين الحاجات الاجتماعية والاخلاقية التي وجدت من من اجلها وبين كونها نصا ذي سمات جمالية من خلال الحاجة المتزايدة للاقناع الذي يقصدة المنشيء للوصية,ولايتم هذا الاقناع بغير الاسلوب الرفيع الذي يشد السامع بحيث يدفعه الاعجاب إلى القناعة,لان الوصية رسالة ادبية واخلاقية في آن معا,ثم إن من غير المناسب إن ندرس الوصية بوصفها موصوعا وحالة اجتماعية تعكس طبيعة العلاقة بين الفرد والاخرين او وسيلة لنقل الخبرات بمعزل عن كونها نصا جماليا,ومفي هذا الجانب لابد إن نتسائل عن الطبيعة الارتجالية لمجمل الوصايا التي وصلت الينا والتي تفرضها طبيعة المواقف والغايات التي تقف وراء ظهور فن الوصايا,ومع ذلك فان الوصية تستوجب مع الارتجال حضور البديهة والمقدرة الكلامية وتاطير الفكرة بالاطار الفني المناسب من خلال التمكن من اختيار الاساليب والتكنيكات التي تراعي الاقناع والابداع معا **(5)**وهو امر سيتكشف في ثنايا الجزء الخاص بفنية الوصايا في لاحق الصفحات.

ومن هذا المنطلق ولاهمية الوصايا وجدناها متناثرة بين كتب الادب والتراث يحرص الرواة والمصنفون على توثيقها ,مع ملاحظة اختلاطها بالخطب وتضمنها للامثال وهو طبيعي بسبب غياب الرؤية النظرية للحدود الفاصلة بين الانواع الادبية.

كما وحضر التنوع الموضوعي والاسلوبي ضمن نسق الخطاب في الوصايا العربية وعكس هذا التنوع وعيا فنيا يوازي الوعي الفكري بقيمة الوصية,فالى جانب كونها فنا رفيعا كانت اداة

مناسبة لتعزيز دعائم بناء شخصية الفرد في بيئة الصحراء التي تفرض نسق العزلة والانفراد على مجمل مفاصل حياة الناس,فكانت وسيلة من وسائل التوجيه التي تكفل الحفاظ على منظومة القيم والعادات واحترام الفرد لها لضمان تحقيق التعايش في بيئة يحكمها الصراع من اجل البقاء.

المسار الموضوعي/الوظيفة الاخلاقية في الرؤية العربية

لكل عمل ادبي ايا كان نمطه نثرا وشعرا هدف فني جمالي لايمثل في مجتمع كالمجتمع العربي الصحراوي البدوي الطابع الغاية الوحيدة له,بل ان هناك اهدافا موضوعية يضعها المبدع نصب عينيه وهو يستجيب لمثير بيئي او حدث اجتماعي او موقف انساني,وهذا الهدف يتجسد في وجود رؤية لا نستكثر على الجاهلي امتلاكها ايا كانت بساطتها,فالموقف من الحرب عند زهير كان رؤية انسانية لابعادها التدميرية ,والظلم الاجتماعي الذي عبر عنه طرفة بن العبد رؤية اجتماعية تحمل بذور الدعوة الى العدالة الاجتماعية,والامر نفسه نجده في الانماط النثرية ,الخطب والامثال والوصايا وغيرها,فهي تحمل مضامين مشابهه تتجسد في انتاج خطاب قيمي باسلوب فني جميل يستهدف فئات متفاوتة من المتلقين ويحمل في ثناياه بذور الفكر الاجتماعي القائم على نقل الخبرات الحياتية التي تعينهم على توجيه حياتهم والتصرف في المواقف المتنوعة التني تواجههم وعيا باهمية السلوك الذي يتوازى مع بيئة انتجت معاييرها الاجتماعية المناسبة للطبيعة المناخية القاسية ونمط غير مستقر يحتم تغيير اماكن العيش وما يتبع ذلك من تغيير في المجاورة مع قبائل شتى,ما استلزم في نهاية الامر نوعا من العلاقات المتوازنة التي قد تميل الى التوتر احيانا والى التحالف في احيان اخرى يحركها عنصر الصراع من اجل البقاء,وهو براينا الغاية الاساسية لكل صراع مهما تنوعت اسبابه.

ومن هذا المنطلق فلا نعدم في مجتمع يوصف بالبداوة وعيا باهمية الانسان بوصفه لبنة بناء الحياة ,فقد احتل مكانة بارزة في الموروث الادبي من هنا كانت المواقف من الحروب التي تستهلك النوع البشري وتهدد استمراره بارزة في هذا الموروث ,ومن يكطلع على اشعار القبائل واخبار ايامها يجد حرصها الشديد على عدم اراقة الدماء لاسيما الثار الذي تحول الى قانون بينها كما ان القبيلة تسعى للاسر اكثر من القتل وتحرص على سلامة الاسرى طمعا في الدية التي تمثل تعويضا مشروعا عن خسائرها البشرية في الحروب وما يرتبط بها من خسائر اخرى**(6)** والحال نفسها في موضوع العيش في البيئة القاحلة وندرة موارده ما اضطرهم الى سلوكيات مثلت معالجات حتمية لتلبية الحاجات الانسانية كالغزو والصعلكه التي تمثل ظاهرة اجتماعية نجدها في صور شتى في كل المجتمعات البشرية لا في المجتمع العربي وحده تحت مسميات متنوعة,والتي يرى الدكتور يوسف خليف انها تدور اصطلاحيا في دائرتين:لغوية تدل على معنى الفقر

واجتماعية تتطور لتدل على صفات خاصة تتصل بالوضع الاجتماعي للفرد في مجتمعه وبالاسلوب الذي يسلكه في الحياة لتغيير هذا الوضع.**(7)**

وتلك القواعد تنطبق على النثر بالدرجة نفسها التي تنطبق فيها على الشعر ان لم يكن اكثر, لاسيما وان النثر كان فنا جمعي الطابع بعيدا عن تعقيدات الشعر الفنية التي تستلزم ادوات على درجة عالية من الموهبة والاتقان والخبرة,ولا يعني ذلك ان النثر كان فنا سهل التناول بدليل تمرس اعلامه والابداع والرصانة الفنية التي تميزت بهما نماذجه الكثيرة التي وصلت الينا,من هنا فان بذور الفكر التنموي الاجتماعي والبشري كانت حاضرة فيه ,وكانت الوصايا احدى الفنون التي جسدت هذا التوجه بصورة واضحة ويمكن عدها من اكثر الانواع النثرية التصاقا بالواقع وقربا من الانسان لكونها تمس قضايا خاصة سعى الى غرسها في النفوس كما انها فن الخاصة والعامة بل انها اشبه بالعادة الحياتية التي يتقنها الاغلبية ويدركون اهميتها في ترسيخ العادات الاجتماعية والثوابت الاخلاقية وانتقالها عبر الاجيال**(8)**,ويمكن ان نميز تنوعا موضوعيا تبعا للاهداف من خلال الغايات الاجتماعية والمضامين الاخلاقية,وتبعا للاشخاص من خلال وصايا الاباء والاجداد للاحفاد ويدخل ضمن هذا النمط وصايا النساء والرجال لبناتهم في مواقف الزواج,ثم وصايا الحكماء والزعماء لقبائلهم في الحرب والسلم,ويدخل ضمن هذا النمط الوصايا التي تقدم للملوك والزعماء وهو فن تطور لاحقا في العصر العباسي بشكل كبير من خلال ارتباطه بمؤسسة الحكم المتمثلة بالخلافة.

فمن نماذج الوصايا المتعلقة بالغايات الاجتماعية تلك التي تتعلق بموضوع الحرب وتجنبها تقابلنا وصية النعمان بن ثواب العبدي لبنيه وكانوا ثلاثة فدعا احدهم وكان صاحب حرب واسمه سعد فقال:**"يا بني ان الصارم ينبو,والجواد يكبو,والاثر يعفو,فاذا شهدت حربا,فرايت نارها تستعر وبطلها يخطر,وبحرها يزخر,وضعيفها ينصر,وجبانها يجسر,فاقلل المكث والانتظار,فان الفرار غير عار,اذا لم تكن طالب ثار,فانما ينصرون هم,واياك ان تكون صيد رماحا ونطيح نطاحها"(9)**

وكثيرا ما تتنوع مضامين الوصية الواحدة كما في قول قس بن ساعدة يوصي ابنه**". ان المعي تكفيه البقلة,وترويه المذقة,ومن غيرك شيئا ففيه مثله,ومن ظلمك وجد من يظلمه,وان عدلت على نفسك عدل عليك من فوقك,واذا نهيت عن الشيء فابدأ بنفسك ولا تجمع ما لا تأكل,ولا تأكل ما لاتحتاج اليه فيؤنبك,وان ادخرت فلا يكونن كنزك الا فعلك,وكن عف العيلة مشترك الغنى تسد قومك,ولا تشاور مشغولا وان كان حازما,ولا جائعا وان كان فهما,ولا مذعورا وان كان ناصحا,ولا تضع في عنقك طوقا لا يمكنك نزعه,واذا خاصمت فاعدل,واذا قلت فاقصد,ولا**

تستودعن سرك احدا,فانك ان فعلت لم تزل وجلا,وكان بالخيار, ان جنى عليك كنت اهلا لذلك,وان وفى لك كان الممدوح دونك"(10)

والوصية عكست الوعي بظروف النفس البشرية وحالاتها وتقلباتها وفهما للطبيعة البشرية ينطلق من التجربة الذاتية للموصي,وتمتاز بوجود نسق معنوي يتمايز في مستويات متتابعة فبدات بنسق ذاتي من خلال نصيحة ذات جانب صحي صرف يتعلق بالاقتصاد في الاكل مراعاة للصحة,ثم انتقلت الى مستوى اخر وهو خارجي يتعلق باخلاقيات التعامل مع الاخرين,ثم النسق الاقتصادي واخيرا نسق فكري يتعلق بالتوافق الصحيح مع المجتمع من غير المساس بالحقوق الشخصية في محاولة لايجاد توازن يكفل تحقيق علاقة سليمة مع الذات والمجتمع.

وقد تتنوع المضامين في الوصية الواحدة لتتصف بالشمول الموضوعي لمختلف الجوانب في الحياة ,وهي تضم خلاصة ما حصل عليه الشخص في الحياة,وهذا النوع من الوصايا يختص به فقط الشيوخ وكبار السن في وصاياهم للابناء والاحفاد وكذلك لقومهم في مواقف الحروب على وجه التحديد,ولا نجده في وصايا النساء والرجال في مواقف مختلفة,ومن ابرز واشهر نماذج هذا النوع وصية اكثم بن صيفي ابرز حكماء العرب لبنيه ,يقول:**"يا بني قد اتت علي مائتا سنة واني مزودكم من نفسي,عليكم بالبر ينمي العدد,وكفوا السنتكم فان مقتل الرجل بين كفيه,ان قول الحق لم يدع لي صديقا,وانه لا ينفع الجزع التبكي,ولا مما هو واقع التوقي,وفي طلب المعاني يكون الغرر,الاقتصاد في السعي ابقى للجِمال,ومن لا يأس على ما فاته ودع بدنه,ومن قنع بما هو فيه قرَت عينه,التقدم قبل التندم,ان اصبح عند رأس الامر احب الي من ان اصبح عند ذنبه,لم يهلك من مالك ما وعَظكَ,ويل لعالم امر من جاهله,الوحشة ذهاب الاعلام,ويتشابه الامر اذا اقبل فاذا ادبر عرفه الاحمق والكيِس,البطر عند الرخاء حمق,والجزع عند النازلة آفة التجمل,ولا تغضبوا من اليسير فانه يجني الكثير,لا تجيبوا فيما لا تُسألون عنه,ولا تضحكوا مما لايُضحَك منه,تناءوا في الديار ولا تباغضوا فان من يجتمع يتقعقع عمده"(11)**,والنظر الى هذه الوصية يؤكد كونها وثيقة اخلاقية وسلوكية تتضمن امورا لازمة لبناء شخصية الفرد ومنها:

1- جانب اجتماعي يتمثل الدعوة الى عمل الخير بما يخدم المجتمع.
2- جانب اخلاقي يتمثل في الابتعاد عن جرح الاخرين بالكلام والجراة في قول الحق.
3- جانب سلوكي يتمثل بالصبر على النكبات والابتعاد عن الغضب والبغض والضحك في غير موضعه.
4- جانب صحي يتمثل في الاقتصاد بذل الجهد واهدار الصحة.
5- جانب اقتصادي يتمثل في الحكمة في الانفاق.

ومن وصايا اكثم بن صيفي الاخرى التي عالجت قضايا اجتماعية وصيته لبني طيء حيث يقول"**اوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم,واياكم ونكاح الحمقاء,فان نكاحها غَرَر,وولدها ضياع,وعليكم بالخيل فاكرموها,فانها حصون العرب,ولا تضعوا رقاب الابل في غير حقها,فان فيها ثمن الكريمة ورقوء الدم..ولن يهلك امرؤ عرف قدره,والعثدم عُدم العقل,لا عدم المال,ولرجل خير من الف رجل,ومن عتب على الدهر طالت معتبته,ومن رضي بالقسم طالت معيشته,وآفة الرأي الهوى والعادة املك,والحاجة مع المحبة خير من البغض مع الغنى,والدنيا دول,فما كان لك اتاك على ضعفك,والحسد داء ليس له دواء,والشماتة تُعْقِب,ومن يَرَ يوما يُرَ به,الندامة مع السفاهة,دعامة العقل الحُلُم,خير الامور مغبة الصبر,بقاء المودة عدل التعاهد**"**(12)** وهذه وثيقة اخرى تدل على التبصر والوعي في دقائق السلوك المفضي الى تحقيق مبدا المواطنة الصالحة من خلال التحلي باخلاقيات التراحم مع الاخرين وحسن اختيار الزوجة الصالحة ورجاحة العقل بالتبصروالقناعة والبعد عن الحسد والشماتة.

ومن درر وصاياه الاخرى التي تناقلتها كتب الأدب والأمثال قوله"**الصديق من الصدق,القلب قد يتهم وان صدق اللسان,الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة,وتقريبهم مكسبة لقرين السوء, فكن من الناس بين القرب والبعد,فان خير الأمور أوساطها,فسولة الوزراء اضر من بعض الأعداء,خير القرناء المرأة الصالحة,عند الخوف حسن العمل,من لم يكن له من نفسه زاجرا لم يكن له من غيره واعظ,وتمكن منه عدوه على أسوأ عمله,لن يهلك امرؤ حتى يملك الناسَ عتيد فعله,ويشتد على قومه,ويُعجَب بما يُظهَر من مروءته,ويغتر بقوته,والأمر يأتيه من فوقه,ليس للمختال في حسن الثناء نصيب,لا نماء مع العُجُب,انه من أتى المكروه لأحد بدأ بنفسه,العِيُ ان تتكلم فوق ما تُسدُ به حاجتك,لا ينبغي لعاقل ان يثق بإخاء من لا تضطره إلى إخائه حاجة,اقل الناس راحة الحقود,من تعمد الذنب فلا تحل رحمته دون عقوبة,فان الأدب رفق,والرفق يُمْن**"**(13)** ,فمفردات التفكير السليم والتصرف الفصيح التي تضمنتها هذه الوصية واضحة وذلك على الرغم من استقلالية العبارات في المضامين التي حملتها,اذ يشدها نسق السوك والتفكير المثاليين الذي اشرنا اليه وكانه يضع دستورا يعبد الطريق لمن يأتي بعده,وتلك هي ابرز سمات الوصايا الجاهلية التي تمثل وثيقة اخلاقية ودليلا ارشاديا للفرد.

وهذا المستوى من الوعي الاجتماعي نجده في وصية اخرى للاوس بن حارثة يوصي ابنه مالكا فيقول"**يا مالك المنية ولا الدنية,والعتاب قبل العقاب,والتجلد قبل التبلد,واعلم ان القبر خير من الفقر,وذهاب البصر خير من كثير من النظر,ومن كرم الكريم الدفاع عن الحريم,ومن قل ذلَ,ومن أمِر فلَ,وخير الغنى القناعة,وشر الفقر الضراعة,والدهر يومان,فيوم لك ويوم عليك,فاذا كان لك فلا تبطر,واذا كان عليك فاصبرْ,فكلاهما سينحسر,فانما تعز من ترى,ويعزُك**

من لا ترى,ولو كان الموت يُشترى لسلم منه اهل الدنيا,ولكن الناس فيه مستوون,الشريف الابلج,واللئيم المعلهج,وكيف السلامة لمن ليست له اقامة,وشرٌ من المصيبة سوء الخلف,وكل مجموع الى تلف,حياك الله"(14)فحتمية الموت تحتم حسن السيرة, تربية جيدة للابناء والدفاع عن المراة والسعي في الكسب لاتقاء الفقر والصبر اما تقلب الاحوال لان دوام حال من المحال,وكلها مضامين اجتماعية واخلاقية واقتصادية تعكس الوعي المجتمعي للانسان العربي.

ومن اشهر الوصايا القديمة وصايا لقمان الحكيم التي تميزت بالتنوع الموضوعي والشمولية وتغطيتها لجميع جوانب السلوك والتفكير والعلاقات الانسانية فمن مضامينها الاقتصادية قوله**"يا بني لاتضع مالك,وتصلح مال غيرك,فان مالك ما قدمتْ,وما غيرك ما تركت"**ومن المضامين الاجتماعية قوله**"من يصحب صاحب السوء لا يسلم,ومن يدخل مدخل السوء يُتهم,ومن لا يملك لسانه يندم,يا بني لا تجالس الفجار ولا تماشيهم,اتق ان ينزل عليهم عذاب من السماء فيصيبك معهم,وجالس العلماء وزاحمهم بركبتيك"**(15)

ومما يميز فن الوصايا حضور فاعل للمراة الاديبة التي عكست حالة من الوعي الاجتماعي كونها الشخص الاول المسؤول عن التربية وتشكيل شخصية الانسان,ومن اهم وصايا النساء تلك الموجهة لبناتهن والتي عكست الوعي باهمية الزواج بوصفه مؤسسة للحفاظ على المجتمع وتماسكه ووعيا باهمية تنظيم العلاقة بين الرجل والمراة لتعزيز هذا التماسك,ومن نماذجها ما جاء في وصية امامة ام الحارث في وصيتها لابنتها ام اياس**"يابنية انك قد خلفت العش الذي فيه درجت,والموضع الذي منه خرجت,الى وكر لم تعرفيه,وقرين لم تالفيه,كوني لزوجك امَة ,يكن لك عبدا,واحفظي عني خصالا عشرا,تكن لك ذُخرا وذكرا,اما اللاولى والثانية فحسن الصحابة بالقناعة,وجميل المعاشرة بالسمع والطاعة,ففي حسن الصحابة راحة القلب,وفي جميل المعاشرة رضا الرب,والثالثة والرابعة:التفقد لموضع عينه,والتعاهد لموضع انفه,فلا تقع عينه منك على قبيح,ولا تجد انفه منك خبث ريح,واعلمي ان الكحل احسن الحسن المودود,وان الماء اطيب الطيب الموجود,والخامسة والسادسة فالحفظ لماله,والارعاءعلى حشمه وعياله,واعلمي ان اصل الاحتفاظ بالمال من حسن التقدير,والارعاء على الحشم والعيال من حسن التدبير,والسابعة والثامنة:التعاهد لوقت طعامه,والهدوء عند منامه,فحرارة الجوع ملتهبة,وتنغيص النوم مغْضبة,والتاسع والعاشر:فلا تفشين له سرا,ولا تعصين له امرا,فانك ان افشيت سره,لم تأمني غدره,وان عصيت امره اوغرت صدره"(16)**ومن الواضح ان ترتيب الافكار وشموليتها في هذه الوصية عكسا الوعي عند المراة ورجاحة عقلها التي جعلتها تنظر الى جميع نواحي السلوك الذي ينظم واجبات الزوجة الصالحة التي تمثل اساس بناء الاسرة الناجحة,وهي وللامانة تستبق زمنها بقرون حيث انها وثيقة اجتماعية هامة تختلف على سبيل

المثال بما يتشدق به الغربيون من افكار جان جاك روسو التي نظم فيها تلك المسالة على اساس مجحف بحق المراة المتزوجة وحولها الى ما يشبه العبد المسلوب الحقوق ,وحتى انها تفضل الجاحظ في اراءه عن المراة الام والتي جعلها ادنى مرتبة واضعف عقلا من ابنها الذي تضربه في كتابه البيان والتبيين.**(17)**

لقد كانت الوصايا تمثل ما يشبه الوثيقة الاجتماعية التي لاتترك مسالة حيوية الا وعالجتها ومن الوصاي ذات القيمة الاجتماعية العالية المتعلقة باختيار الزوجة مثلا ما جاء في وصية اكثم بن صيفي لطيء يقال انه كتبها اليهم وفيها يقول"**اوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم واياكم ونكاح الحمقاء,فان نكاحها غرر,وولدها ضياع,وعليكم بالخيل فاكرموها.." (18)**

ومن النصائح والوصايا ذات المغزى العمتنوع الذي يقدم خلاصة التجربة الحياتية وصية قس بن ساعدة الايادي ومنها"ومن الوصايا الغريبة التي تعكس الارتياب المشروع في بيئة لايحكمها دستور غير العرف وتكون فيها التجارب سلاحا فعالا لحماية النفس وصية دويد بن زيد بن نهد لبنيه وفيها يقول"**يا بني اوصيكم بالناس شرا,لا ترحموا لهم عَبرة,ولا تقيلوا لهم عثرة,قصِروا الاعنة,وطولوا الاسنة,واطعنوا شزرا واضربوا هبرا,وإذا أردتم المحاجزة فقبل المناجزة,والمرء يعجز لا المحالة, بالجد لا بالكد,التجلد ولا التبلد,المنية ولا الدنية,لا تأسوا على فائت وان عز فقده,ولا تحِنُوا على ضاعن وان ألِف قربه,ولا تطمعوا فتطبعوا,ولا تهنوا فتخرعوا,ولا يكن لكم مثل السوء,(إن الموصين بنو سهران)**"(19)

وهذه الوصية خرقت في مطلعها النسق المألوف للوصايا بالدعوة الصريحة الى الشر على غير ما اعتدناه ,اذ تحرض على التشكيك بنوايا الاخرين,واستباق الشر بمثله,ويبدو انها تعكس خبرات سلبية خبرها هذا الرجل جعلته يفقد الثقة بالاخرين وربما كانت مواقف الحروب والمصائب التي واجهته سببا في تلك الحال,مع ان الشطر الثاني من الوصية كان غاية في الحكمة والصواب كما في قوله(بالجد لا بالكد,المنية ولا الدنية,ولا تأسوا على فائت وان عز فقده) لانها تدفع لتجاوز خصال سلبية في النفس والخروج من حالة اليأس والتطلع للمستقبل.

واذا كنا قد اعتدنا ان نرى تخصص الشيوخ بالوصايا في اغلب نماذجها فاننا لانعدم تبادلا للوظائف بين الاجيال,فقد تكون المراة الشابة هي من توصي الشيخ المحنك ووصية الجمانة بنت قيس بن زهير لجدها الربيع بن زياد تشهد على تلك المقدرة والمكانة التي تتميز بها المراة في العصر الجاهلي على غرار ما الفناه من اجحاف بحقها ,تقول:"**اذا كان قيس ابي فانك يا ربيع جدي,وما يجب له من حق الابوة علي الا كالذي يجب عليك من حق البنوة لي,والراي الصحيح تبعثه العناية,ويتجلى عن محضه النصيحة,انك قد ظلمت قيسا باخذ درعه,واجد مكافاته اياك سوء عزمه,والمعارض منتصر والبادي اظلم,وليس قيس ممن يُخَوف بالوعيد,فلا تركنن الى**

منابذتــه فــالحزم فــي متاركتــه,والحرب متلفــة للعباد,ذهابــة بالطــارف والتلاد,والســلم ارخــى للبــال,وابقى لانفــس الرجــال,وبحق اقــول لقــد صــدعت بحكمك,ومــا يــدفع قــولي الا غيــر ذي فهم"(20)فهي تعكس الوعي بقيمة العلاقة بين الاباء والابناء ووجوب الطاعة والتراحم والابتعاد عن البغض والتشرذم كما انها تعكس جراة في قول الحقيقة على الرغم من المكانة التي اعتدناها للشيوخ والمعمرين في ذلك المجتمع.

ان نماذج الوصايا السابقة حملت في طياتها الوعي الاجتماعي الواضح كما انها تحمل قضية جوهرية تتمثل في الايمان بامكانية تشكيل البيئة العلاقاتية بين افرد المجتمع بما يحررهم من بداوة التفكير وتطرف النظرة الى الاخرين والخروج من التصنيف الاجتماعي الثنائي (خير/شرير)لانها تستكشف بواطن النفس البشرية وتقترح منهجا معتدلا في السلوك قدر المستطاع,وتحمل جذور يوتوبيا عربية يحق لنا ان نبحث عن ملامحها متجاوزين مقولات البداوة القاسية والتطرف والعنف التي الصقت بالشخصية العربية في ذلك العصر,وهي نفسها الجذور التي اسس عليها الاسلام منهجه السامي في تنظيم العلاقات الاجتماعية في ميزان الحقوق والواجبات التي اسست لتنمية بشرية واجتماعية تقوم على اسس العدالة والشعور بالمسؤولية.

المسار لفني/بنية الوصايا واساليبها الفنية

حملت الوصايا سمات النثر العربي القديم العامة وفي مقدمتها السجع المتوازن وقصر العبارات واستقلالية البنى المعنوية المتراتبة في سياق العبارة الواحدة,وقد لاتختلف عن الخطب وتتداخل معها في كثير من السمات,مع فارق بسيط يتمثل في الشمولية التي تتميز بها الخطب في الوقت الذي تميل فيه الوصايا التخصص كونها تمثل خطابا فرديا في اكثر نماذجه**(21)**كما تتداخل مع الامثال في استقلالية العبارات,بل ان عباراتها في اكمثر الاحيان تحولت الى امثال تروى,وليس صحيحا ما يمكن الاعتقاد به من انها عبارة عن امثال متراكبة بدليل طريقة رواية الامثال نفسها في مصادرها الاساسية ككتاب جمهرة الامثال للعسكري والميداني حيث يذكر المثل ويشير الى اخذه من وصية ما **(22)** .

ونظرا لطبيعتها التوجيهية فقد تميز بسمة الوضوح ولم تفتقد للعمق وبنية الخطاب فيها تعتمد على نمط من التناظر الاسلوبي في بناء عباراتها التي تتالف منها,ويبدو انها راعت تقاليد الخطب ذات النزعة الاقناعية وانها كانت تعتمد بطريقة ما على قصر العبارات ذات الوحدات المعنوية المتناسبة وقد يرجع ذلك الى سمتها الارتجالية الواضحة التي تؤثر بشكل كبير على بنيتها ,مع ان هذه السمة هي الغالبة على مجمل نماذج النثر العربي القديم,ذلك لانه تخصص الفصحاء واهل القول والبراعة ,ولاهميتها فلا بد ان يكون مستوى الخطاب فيها قائما على الدقة والوضوح فلئن ارتجلت في لفظها فلا بد ان يكون لمعانيها حضور مؤثر في النفوس لترسخ في قلوب السامعين وتعلق في اذهانهم,وكانت نماذجها التي وصلت الينا على درجة عالية من الاتقان الجودة والجمالية في التعبير وتوزيع الافكار على وحدات المعنى ,وما يؤكد هذه القصدية الاقناعية لجوء الموصي الى التبرير كما في قول اكثم بن صيفي في هذه الوصية(كفوا السنتكم فان مقتل الرجل بين فكيه)وغيرها من الاسباب التي نجدها في اغلب الوصايا,يقول اكثم بن صيفي في هذه الوصية: **"يا بني قد اتت علي مائتا سنة واني مزودكم من نفسي,عليكم بالبر ينمي العدد,وكفوا السنتكم فان مقتل الرجل بين كفيه,ان قول الحق لم يدع لي صديقا,وانه لا ينفع الجزع التبكي,ولا مما هو واقع التوقي,وفي طلب المعاني يكون الغرر,الاقتصاد في السعي ابقى للجِمال,ومن لا يأس على ما فاته ودع بدنه,ومن قنع بما هو فيه قرَت عينه,التقدم قبل التندم,ان اصبح عند رأس الامر احب الي من ان اصبح عند ذنبه,لم يهلك من مالك ما وعَظكَ,ويل لعالم امر من جاهله,الوحشة ذهاب الاعلام,ويتشابه الامر اذا اقبل فاذا ادبر عرفه الاحمق والكيِس,البطر عند الرخاء حمق,والجزع عند النازلة آفة التجمل,ولا تغضبوا من اليسير فانه يجني الكثير,لا تجيبوا فيما لا تُسألون عنه,ولا تضحكوا مما لايُضحَك منه,تناءوا في الديار ولا تباغضوا فان من يجتمع يتقعقع عمده"(23)** فهي تبدا بالنداء وهي اولى ميزات الوصايا التي تميزها عن الامثال,كما انها تفصح عن نمطها الادبي(مزودكم من نفسي),وتمتاز بقصر العبارات

واستقلالية معناها وهو الامر الذي يسر استنباط الامثال منها,لان المثل كما هو معروف عبارة تجتمع لها ثلاث صفات:ايجاز اللفظ واصابة المعنى وحسن التشبيه**(24)**ويلاحظ توافق الوحدات الصوتية بين العبارت لاسيما تلك التي تشترك في سياق معنوي كقوله (كفوا السنتكم فان مقتل الرجل بين فكيه)(ان قول الحق لم يدع لي صديقا),وكذلك في قوليه(انه لاينفع الجزع التبكي)(ولا مما هو واقع التوقي),والى جانب هذا التوافق الكمي نجد توافقا بنائيا واضحا يتمثل في تشكيل نسق ثابت يشبه القالب يغير محتواه بين عبارة واخرى ,على شاكله مانجد في قول دويد بن زيد(**لا ترحموا لهم عَبرة,ولا تقيلوا لهم عثرة,قصِروا الاعنة,وطولوا الاسنة)(25)**فسياق البناء في العبارتين الاوليتين يقوم على(اداة نفي+فعل+جار ومجرور+اسم) وفي العبارتين الاخريين(فعل+اسم) مع تربط العبارات جميعها بجمعية الخطاب الذي تحؤشره(واو الجماعة) الملحقة بالافعال جميعها,وهو نفسه ما نراه في نسق بناء وصية اكثم السابقة لاسيما قوله(**ولا تغضبوا من اليسير فانه يجني الكثير,لا تجيبوا فيما لا تُسألون عنه,ولا تضحكوا مما لايُضحَك منه**) والتي تتشكل من (اداة نفي+فعل+حرف جر+اسم) تحضر فيها جمعية الخطاب ايضا متمثلة في (واو الجماعة)واذا بحثنا في نماذج الوصايا الباقية لانعدم غياب هذا الاسلوب في بناء الجمل,وهي بلا شك طريقة لتوليد المعاني تمثل مايشبه القاعدة الفنية التي ينسج المبدع على منوالها,والامر نفسه فيما يتعلق باستقلالية معاني العبارات مع ارتباطها بالمعنى العام ارتباطا عضويا,فوصية ام اياس لابنتها تحمل الهدف العام نفسه مع اختلاف مفردات المعاني فيها,وجاء تراتبها العددي ليسهل عملية تنظيم الافكار وتداخل المعاني المستقاة من وحدة الفكرة القائمة على الالمام بالسلوكيات الصحيحة في العلاقة الزوجية,تقول: **(يابنية انك قد خلفت العش الذي فيه درجت,والموضع الذي منه خرجت,الى وكر لم تعرفيه,وقرين لم تالفيه,كوني لزوجك امَة ,يكن لك عبدا,واحفظي عني خصالا عشرا,تكن لك ذُخرا وذكرا,اما اللاولى والثانية فحسن الصحابة بالقناعة,وجميل المعاشرة بالسمع والطاعة,ففي حسن الصحابة راحة القلب,وفي جميل المعاشرة رضا الرب,والثالثة والرابعة:التفقد لموضع عينه,والتعاهد لموضع انفه,فلا تقع عينه منك على قبيح,ولا تجد انفه منك خبث ريح,واعلمي ان الكحل احسن الحسن المودود,وان الماء اطيب الطيب الموجود**...الخ)**(26)**فالعبارتان الاوليتان تقومان على نسق(فعل+اسم+اسم موصول+جار ومجرور+فعل ماضي) (مع الاشارة الى حذف مجازي للفعل في مقدمة الجملة الثانية)وفي الخصلتين الاولى والثانية (**فحسن الصحابة بالقناعة,وجميل المعاشرة بالسمع والطاعة,ففي حسن الصحابة راحة القلب,وفي جميل المعاشرة رضا الرب**)كان النسق(اسم مضاف+مضاف اليه+جار ومجرور)للعبارتين الاوليتين,ثم(حرف عطف+حرف جر+اسم مجرور+مضاف اليه+اسم مضاض ومعه مضاف اليه) وليس هذا العرض لغاية تفكيكية تفقد

النص جماليته بل لتأكيد وعي المتكلم اللغوي تساعده في ترسيخه آلية الاستعمال المتكرر للغة الخطاب المرموقة التي تستوعب التشكيلات الجمالية وتتميز بالقدرة على التعبير والسعة المعنوية وجماليات الاداء التي تتيحها.

والسمة الاخرى المميزة لهذا النوع النثري تتجسد في الاستعمال الواعي للسجع ,فكما هو معروف فان السجع يقابل القافية في الشعر الا انه لا يشبهها في الزامية الحضور في كل بيت لان النثر يفترق عن الشعر بالمرونة التشكيلية,ويشترط تشكيله الايقاعي الخاص المتحرر من النظام الثنائي المتساوي التفعيلات المتمثل بالبيت الشعري,وعوضا عن ذلك يقوم على ايقاع العبارة البنائي الطابع الذي اشرنا اليه في القراءة التركيبية وتناسقه بين العبارات المتلاحقة مع امكانية ابتكار قوالب بنائية مختلفة تحقق الغرض الايقاعي نفسه,وتميزت الوصايا بالاستخدام المتنوع للسجع وعدم اعتباره وسيلة للوصول الى المتلقي بقدر حضوره الطبيعي لتحقيق التوازن الايقاعي المطلوب بين العبارات, ويمكن تمييز طريقتين تم فيها توظيف السجع نقترح تسمية الاولى بالسجع الداخلي أي في سياق بنية العبارة الواحدة,ومن نماذجة ما جاء في وصية الاوس بن حارثة لابنه مالك فيقول"**يا مالك المنية ولا الدنية,والعتاب قبل العقاب,والتجلد قبل التبلد,واعلم ان القبر خير من الفقر,وذهاب البصر خير من كثير من النظر,ومن كرم الكريم الدفاع عن الحريم,ومن قل ذلَ**"" فعبارات(المنية/الدنية)(العتاب/العقاب)(القبر/الفقر)(البصر/النظر)(الكريم/الحريم)(قل/ذل) تمثل نمط السجع الداخلي,في حين تمثل العبارات الاتية نمط السجع الخارجي الذي يكون بين عبارتين او أكثر كما في الوصية نفسها:(**وخير الغنى القناعة,وشر الفقر الضراعة,والدهر يومان,فيوم لك ويوم عليك,فاذا كان لك فلا تبطر,واذا كان عليك فاصبرْ,فكلاهما سينحسر,فانما تعز من ترى,ويعزُك من لا ترى,ولو كان الموت يُشترى لسلم منه اهل الدنيا,ولكن الناس فيه مستوون,الشريف الابلج,واللئيم المعلهج,وكيف السلامة لمن ليست له اقامة,وشرٌ من المصيبة سوء الخلف,وكل مجموع الى تلف,حياك الله**"**(27)** ,فكلمات(القناعة/الضراعة)(تبطر/فاصبر/ينحسر) (ترى/لاترى) (الابلج/المعلهج) وغيرها تمثل نماذج السجع الخارجي,وهذا التنويع يحرر النص من الايقاع الرتيب الممل كما يحرره من الصنعة المقصودة التي تنم عن ضعف الموهبة.

ومن الملاحظات الاخرى التي تتضح عند الاطلاع على مجمل نماذج الوصايا تنويع الاساليب المستخدمة من نداء ونهي ونفي وتوكيد وغيرها,وعادة ما تبدا الوصايا ب(يا) التي يعتمد عليها الموصي في لفت الانتباه الياه,كما قد تعتمد العطف بين الجمل في بعض نماذجها على غير ما الفناه من ذكر العبارات المتتابعة التي قد ترتبط فيما بينها او ترتبط بالفكرة العامة للوصية,ومن نماذج هذه الوصايا وصية اكثم بن صيفي لبني تميم,يقول:"يا بني تميم,لايفوتنكم وعظي ان فاتكم

الدهر بنفسي,ان بين حيزومي لبحرا من الكلم,فتلقوها باسماع مصغية,وقلوب واعية تحمدوا عواقبها,ان الهوى يقظان,والعقل راكد والشهوات مطلقة,والحزم معقول والنفس مهملة,والروية مقيدة,ومن جهة التواني وترك الروية يتلف الحزم,ولن يعدم المشاور مرشدا,والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل,ومن سمَّع سُمِع به,ومصارع الالباب تحت ظلال الطمع,ولو اعتبرت مواقع المحن ما وجِدت الا في مقاتل الكرام,وعلى الاعتبار طريق الرشاد,ومن سلك الجدد امن العثار,ولن يعدم الحسود ان يُزعج قلبه,ويشغل فكره,ويورث غيظه,ولا يجاوز ضره نفسه,يا بني تميم :الصبر على تجرع الحلم اعذب من جني ثمر الندم,ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم,وكلْم اللسان انكأ من كلْم الحسام,والكلمة مربوبة,ما لم تنجم من الفم,فاذا نجمت فهي سَبُعٌ مِحرب",ونار تلهب,ولكل خافية مخْتف,ورأي الناصح اللبيب لا يجور,ونفاذ الراي في الحرب انفذ من الطعن والضرب"**(28)**

فالنداء في(يا بني تميم) لازمة اسلوبية اعتدنا ان نجدها في مقدمات الوصايا,التوكيد في ابتداء الكثير من العبارات ب(ان) وكذلك النهي ب(لا) والنفي ب(لن)والشرط ب(من) و(لو) و(اذا) كما حفلت بصنوف المجاز ومنها الاستعارة والتوكيد والتقديم والتأخير ومن الاستعارات اللافتة قوله(ثمر الندم) التي توحي بعاقبة العمل بما يتناسب والسمة الوعظية للوصية.

فالوصايا اذن كانت وثيقة اجتماعية وفنية عكست العقلية العربية وكانت الى جانب الانواع الاخرى كالشعر والخطابة والامثال وهي تحمل ملامح فكر تنموي عربي لبنته الاساسية الانسان على الرغم من الطابع القبلي لحياة العرب قبل الاسلام, وكان للمراة فيها نصيب جيد تمثل في محورين اولهما:الطرف المسؤول الواعي لقيمة المراة في بناء الانسان,والاخر: كونها مادة الوصايا لاسيما في موضوع اختيار الزوجة الصالحة,ولاشك في الادب عموما كان اداة فعالة للتغيير وتحقيق اهداف المجتمع سعيا الى ضمان عيش متوازن يكفل حقوق الاخرين ويضع على عاتق الفرد مسؤولية الحفاظ على هذه الحقوق.

الهوامش

1- جمهرة النثر النسوي/38.
2- لباب الآداب/1-2.
3- جمهرة النثر النسوي/39.
4- بنية النص النثري الجاهلي بين الارتجال والصنعة الفنية/75.
5- نفسه/76.
6- الإنسان في الشعر الجاهلي/ 34.
7- الشعراء الصعاليك/26.
8- بنية النص النثري الجاهلي بين الارتجال والصنعة الفنية/75.
9- مجمع الأمثال 72/1.
10- كتاب جمهرة الأمثال 203/1.
11- كتاب المعمرين من العرب ص36 وبرواية مختلفة في جمهرة الامثال للعسكري 400/1,وينظر وصية مماثلة لزرارة بن عدس /121 من كتاب المعمرين.
12- مجمع الامثال87/2.
13- كتاب جمهرة الأمثال 401/1.
14- كتاب الامالي 102/1.
15- أروع ما قيل من الوصايا/ 78 .
16- من نثر الدر233/4.
17- البيان والتبيين248/1,تحقيق محمد عبد السلام هارون-مكتبة الخانجي-ط5 1985).
18- مجمع الامثال87/2.
19- كتاب جمهرة الأمثال 72/1.
20- كتاب بلاغات النساء/ 125.
21- بنية النص النثري/75.
22- كتاب جمهرة الأمثال 72/1.
23- كتاب المعمرين من العرب /36.
24- كتاب الأمثال لابن سلام/34.
25- كتاب جمهرة الأمثال 72/1.
26- من نثر الدر 233/4.
27- كتاب الامالي 102/1.
28- كتاب جمهرة الامثال208/2.

المصادر

1- اروع ما قيل من الوصايا- امين ناصيف- دار الجيل-ط1- بيروت- 1995.
2- الانسان في الشعر الجاهلي- د.عبد الغني احمد زيتوني- مركز زايد للتراث- ط1- العين- 2001.
3- بنية النص النثري البجاهلي بين الارتجال والصنعة الفنية-د.نصرة احميد الزبيدي- دار المرتضى-ط1- بغداد-2012.
4- البيان والتبيين- ابو عمرو بن بحر الجاحظ(ت255)- تحقيق عبد السلام هارون- مطبعة الخانجي-ط5- القاهرة-1985.

5- جمهرة النثر النسوي في العصر الاسلامي والاموي-د.ليلى محمد ناظم الحيالي-مكتبة لبنان-ط1- بيروت-2003.
6- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي- د.يوسف خليف-دار المعارف-ط3-القاهرة-1966.
7- كتاب الامالي-ابو علي اسماعيل بن القاسم البغدادي(ت356هـ)-دار الكتب العلمية-بيروت.
8- كتاب بلاغات النساء-الامام ابو الفضل احمد بن ابو طاهر(ت280هـ)-مطبعة مدرسة والدة عباس الاول-القاهرة-1908.
9- كتاب جمهرة الامثال-ابو عبد الله الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري-ضبط هوامشه:د.احمد عبد السلام- دار الكتب العلمية-ط1- بيروت-1988.
10- كتاب المعمرين من العرب وطرف من اخبارهم وما قالوه في منتهى اعمارهم-الامام ابو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني(ت235هـ)- تصحيح وتعليق محمد امين الخانجي- مطبعة السعادة-ط1- القاهرة-1905.
11- لباب الاداب-اسامة بن منقذ(ت584هـ)- تحقيق:احمد محمد شاكر-مكتبة السنة – القاهرة-1935.
12- مجمع الامثال-ابو الفضل احمد بن محمد بن احمد الميداني(ت518هـ)-تحقيق:محمد محيي الدين عبد الحميد- مطبعة الهدى المحمدية- القاهرة-1955.
13- من نثر الدر-الوزير الكاتب ابو سعد منصور بن الحسين الآبي(ت421هـ)-تعليق:مظهر الحجي- منشورات وزارة الثقافة-دمشق-1967.